

الخطابُ الاستعماريُّ وصراعُ الهويةِ

في ثلاثيةِ محمد ديب

The discourse colonialism and the identity's struggle
in trilogy from Mohammed Dib

د.قاسمي كاهنة

جامعة محمد البشير الابراهيمي - برج بوعريج.

الملخص:

لقد سجلت الرواية الجزائرية حضورا قويا إبان الفترة الاستعمارية للجزائر، حيث كانت من أكثر الأجناس الأدبية بروزا وانتشارا، باعتبارها الوعاء الذي يحوي القضية الجزائرية بكل معالمها وأبعادها، كما شهدت تلك الفترة ميلاد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية التي أسسها نخبة من المثقفين الجزائريين، الذين أدركوا مبكرا أنّ الجزائر ليست فريسة وأنّ فرنسا ما هي إلا استعمار جاء لينهب ويسلب ويستعبد الشعب الجزائري، ولذلك وجب التخلص منه. وبناءً على ذلك ظهرت ثورة فكرية وأدبية عارمة مناهضة للأدب الكولونيالي الذي يحاول تحقيق الشرعية للاستعمار الذي حاول طمس كل معالم الثقافة العربية وموروثها الثقافي، فكان الأدب من الوسائل الناجعة التي اعتمدها السلطات الفرنسية للمغالطة وزيف الحقائق، فبدأت هذه الثورة الأدبية على يد مجموعة من الأدباء ومنهم مولود فرعون، كاتب ياسين، محمد ديب...

فمحمد ديب ومن خلال ثلاثيته المشهورة (الدار الكبيرة - الحريق - النول) حاول تصوير الحياة اليومية من خلال بث معاناة عائلة جزائرية عانت كثيرا من الفقر والجوع وكذا تعسف السلطات الاستعمارية، ففي رواياته عالج قضية "الأنا" و"الآخر" أو "المركز" أو "الهامش" وما تثيره العلاقة القائمة بينهما من إشكاليات. ففي هذه الرواية تطرقت إلى كيفية ظهور صورة "الأنا" الجزائري و"الآخر" الفرنسي في الخطاب الروائي، أي العلاقة الموجودة بين المركز المستعمر والهامش المستعمر وذلك من خلال التطرق إلى الخطاب الاستعماري في الرواية وإلى تفكيك الخطاب الاستعماري الذي أظهر استعلاء الغربي على العربي.

*- الكلمات الدلالية: - الاستعمار. - الكولونيالية - محمد ديب. - الدار الكبيرة. - الحريق. - النول.

Summary

The Algerian- French written novel was established by the Algerian elite, who realized that Algeria was considered as a prey for the French colonialism whose sole objective was to enslave the Algerian people.

In the midst of that, an opposing intellectual revolution, which tried to emphasize on the legality of colonialism and its trial to eliminate the Algerian identity, emerged. Therefore, literature was the appropriate way to exert influence on people defending either view. The most known authors of that time were: Mohamed Dib, Mouloud Feraoun, Kateb Yacine...

Through his trilogy, *le metier a Tisser*, *la grande maison* and *l'incendie* (fire), Mohamed Dib attempted to reflect the daily life and struggles of the Algerian family. He depicted the daily life of a large Algerian family and its suffering from hunger, poverty and the violations of the colonizer.

In his novels, Dib discussed the “ego” and the “other” and the constant struggle between them. In the trilogy, the “ego” was the Algerians, while the “other” was the French colonialism. Dib discussed the struggling relationship between these two variables, and emphasized that Western colonialism exerted unlimited power upon Arabic countries.

Key words: Colonialism, Mohamed Dib, *La grande maison*, *L'incendie* (Fire).

مقدمة

يعد الفن الروائي من بين أهم الفنون النثرية التي عرفها العرب، وقد عرفت الرواية العربية تطورا كبيرا منذ ظهورها إلى اليوم، وهذا التطور الكبير الذي لحقها، نجده متمثلا بقوة في الرواية الجزائرية التي حاولت كسر كل القيود المفروضة عليها، خاصة إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر حيث أنها عبّرت عن آلام ومعاناة الشعب الجزائري، وقد عبّرت أيضا عن همجية الاستعمار، كما عبّرت في وقت لاحق عن مختلف المشاكل التي يعاني منها المجتمع وقد برز على الساحة الجزائرية نخبة من الروائيين الذين حملوا على عاتقهم هذه المهمة الصعبة والمعقدة، نذكر منهم: محمد ديب، مولود فرعون، كاتب ياسين، عبد الحميد بن اهدوكة وغيرهم ...

والرواية الجزائرية كغيرها من الروايات العربية، قد تأثرت بالاستعمار، لذلك كان لزاما على الأدباء أن يسايروا الوضع، ويصوّروا معاناة شعبيهم من خلال أعمالهم الأدبية. وقد نالت الرواية حظا كبيرا في ذلك، كما شهدت تلك الفترة نشأة الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، فظهر عدد معتبر من الأدباء كأسيا جبار، ومالك حداد، وكاتب ياسين وغيرهم، فهؤلاء حملوا على عاتقهم مهمة التصدي للمستعمر الفرنسي من خلال استعمالهم للغة العدو، بغية توصيل معاناتهم لأبعد حد، كما صرّحوا من خلال أعمالهم رفضهم التام للاستعمار، لأنه لا يفرق أبدا عن الاستعباد، كما أنهم قاموا بإسماع صدى معاناتهم وثورتهم إلى الشعب الفرنسي ذاته، وهذا من أجل فضح وتعرية التجاوزات المنتهكة من طرف الاستعمار على الشعب الجزائري، "ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد في سنة 1950 على أيدي كبار بلغوا درجة عالية في مضمار الفن الروائي"¹، فهؤلاء الأدباء اختاروا لغة المستعمر لتكون هي الوسيلة الأنجع لمخاطبته، خاصة أنه قام بحصار تدريس اللغة العربية بعد أن ألغاهها من المدارس، بحجة أنها لغة أجنبية، لذلك "كان على منتجي الرواية باللغة الفرنسية، خلق مسافة لتأمل التاريخ ونقد الذات ونقد الآخر، فمن خلال هذه المسافة وفي ظلّ هذه المساحة بدأ الإعلان عن نص روائي جديد يبشّر بإنسان جديد وبعقل جديد، قلب موازين البطولة الروائية، فإذا كان (الأخر) الفرنسي هو المركز في الرواية الاستعمارية ف(الأنا) أي (الاهلي) هو الهامش، وفي هذا النص ولد إنسان جديد"².

أولا: مصطلح ما بعد الكولونيالية:

يدلّ مصطلح ما بعد الكولونيالية إلى مرحلة ما بعد الاستعمار، "ويستخدم مصطلح ما بعد الكولونيالية، ليشمل كلّ ثقافات تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية إلى يومنا الحالي، يرجع هذا الاستخدام إلى استمرار هذا الانشغال طوال العملية التاريخية، التي بدأت بالعدوان الإمبريالي الأوروبي"³، كما يعرف بأنه "مصطلح مختصر يحاول العثور على قاسم مشترك بين مجتمعات العالم الثالث، التي تأسست على قوميات مختلفة نهضت في مواجهة الاستعمار الأوروبي، وما تركه من آثار، كما يحاول المصطلح أيضا العثور على قاسم مشترك بين ما أنتجته هذه المجتمعات من فنون وآداب"⁴، ولعلّ القاسم المشترك بين هذه الأمم هو خضوعها كلّها للاستعمار باختلاف جنسيته.

ويعرّف سعد البازغي مصطلح الخطاب الاستعماري والنظرية ما بعد الاستعمار قائلاً: "يشير هذان المصطلحان اللذان يكملان بعضهما بعضاً، إلى حقل من التحليل ليس جديداً بحدّ ذاته، ولكن معالمة النظرية والمنهجية لم تتضح في العرب إلا مؤخراً مع تكثيف الاهتمام به، وازدياد الدراسات حوله. يشير المصطلح الأول إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية، في مختلف المجالات من نتائج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب، على أساس أنّ ذلك الانتاج يشكّل في مجمله خطاباً متداخلاً بالمعنى الذي استعمله فوكو لمصطلح خطاب، أمّا المصطلح الثاني "النظرية ما بعد الاستعمارية" فيشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأنّ مرحلة من الهيمنة تسمى أحياناً المرحلة الامبريالية أو الكولونيالية- كما عرّبها بعضهم - قد حلّت وخلقت ظروفًا مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع معين. ولذا فإنّ المصطلحين ينطلقان من وجهات نظر متعارضة، فيما يتصلّ بقراءة التاريخ، وإن كان ذلك اختلافاً في التفاصيل لا في الجوهر. فبينما يرى بعضهم انتهاء مرحلة الاستعمار التقليدي، وبالتالي انتهاء الخطاب المتصل به، وضرورة أن يركّز البحث في ملامح المرحلة التالية، وهي مرحلة ما بعد الاستعمار. يرى بعضهم الآخر أنّ الخطاب الاستعماري ما يزال قائماً، وأنّ فرضية «الما بعدية» لا مبرر لها"⁵.

والملاحظ أن هناك علاقة بين مصطلح الخطاب الاستعماري، ومصطلح النظرية ما بعد الاستعمار، لأنهما يشتركان في الهدف ألا وهو محاولة إخضاع العرب لسيطرة الغرب، أي تبعية العرب الدائمة للغرب سواء عن طريق الاستعمار التقليدي أو الحديث، وقد كان "أول استخدام لمصطلح (ما بعد الكولونيالية) في مجال النظرية السياسية في أوائل السبعينات، لكنه اكتسب معناه في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين... ويذكر أيضاً أنّ أول مؤسس لهذا الحقل المعرفي، هو (ادوارد سعيد) بينما كان المبشر الأول له هو (فرانز فانون) عبر كتابه (معذبو الأرض)"⁶. إذن يعدّ إدوارد سعيد أول مؤسس لمصطلح (ما بعد الكولونيالية) وهو أمريكي من أصل فلسطيني، من خلال كتاب (الإستشراق) الصادر سنة 1978.

فنظرية ما بعد الاستعمار قد قامت بتقويض المركزية عند الغربيين من خلال تقويض المقولات الفكرية الأوروبية، خاصة وأنّ للاستعمار دوراً كبيراً في نشوء الوعي في المجتمعات العربية، "لقد ساعد الاستعمار على اخراج الوعي من غفوته وغفلته، وجعلته يرى مأزقه

الحضاري والتاريخي، ومنحه بذلك فرصة ليثري المشهد السردي للوجود الانساني، إن الكتابة ما بعد الكولونيالية هي الطريقة المثلى والفعالة ليؤكد فيها الأطراف والهوامش ذواتهم ولينتقموا معنويا من المركز- في مواجهة المركزية الغربية- ولهذا جاء هذا الأدب متفردا "7. وبالتالي فنصوص ما بعد الكولونيالية تهدف إلى تقويض الفكر الغربي وتحطيم مركزيته.

تعد ثلاثية محمد ديب من أعظم الثلاثيات وهي موسومة ب (الدار الكبيرة – الحريق – النول)، وهو من الكتاب الذين أدخلوا الرواية الجزائرية إلى الساحة الأدبية وأعادت لها هيبته ومكانتها، لأنها ببساطة تتناول واقع الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر. ففي رواية (الدار الكبيرة) التي صدرت سنة 1952 يصوّر الكاتب فيها حالة الشقاء والضنك الذي تعيشه بعض العائلات القاطنة ب دار سبيطار، من خلال شخصية عيني المرأة الفقيرة التي تتعب وتشقى من أجل ضمان قوت أولادها، فتضطر للعمل من أجل ذلك. أما في رواية (الحريق) التي صدرت سنة 1954 فيصوّر الكاتب الأحداث الحاصلة بالريف الجزائري حيث كانت الحياة صعبة جدا على الفلاحين الذين انتزعت وصدورت منهم أراضيهم بالقوة. أما رواية (النول) أو (المنسج) فقد صدرت سنة 1957 فيروي فيها الكاتب بؤس محترفي النسيج، واستغلالهم للعمل في مصانع المعمرين بأجور جدّ زهيدة.

وما يميز هذا العمل الأدبي الضخم أن كاتبها محمد ديب (1920-2003) قد كتبها أثناء الحكم الفرنسي للجزائر، وعلى الرغم من أنّ هذه الرواية كتبت بلغة العدو أي باللغة الفرنسية وهذا ما يبرز أحد أشكال هيمنة المستعمر. هذه الروايات الثلاث أوضحت ثنائية المُستعمر والمستعمَر على الرغم من ادعاء فرنسا بأنها جاءت لتحرير الجزائر من العبودية والجهل، وعلى الرغم من تعهدهم في بداية الأمر على احترام الديانة والمقدسات وأعراض الناس وممتلكاتهم، إلا أنهم وبمجرد أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر تخلوا عن كل تعهداتهم ووعودهم تجاه الشعب الجزائري "إن هؤلاء الكتاب الكولونياليين على مختلف طبقاتهم، قد أداروا ظهورهم لنصوص ثورتهم الفرنسية، التي تزعم أنها جاءت بالحرية، والعدالة، والأخوة، وقد تركوا هذه المبادئ من وراء البحر، لقد انسلخوا منها في الجزائر، واتخذوا منحى آخر يتبنى ثقافة القوة والعنف والعداوة والحرب، من أجل استعمار واستعباد الجزائر والجزائريين، فظهر الوجه الفاحش والقبيح لهذه الثقافة"8.

إذن لقد قامت فرنسا باستعباد المجتمع الجزائري، خاصة وأنّ احتلالها للجزائر كان لما يربو على مائة عام، ولكن هل كان التخلص من مخلفات الاستعمار بالأمر الهين؟. هذا ما سنراه في هذه المداخلة.

بعد نيل الجزائر لاستقلالها عقب معارك ضارية مع المستعمر أثبتت بطولة الشعب الجزائري من خلال مقاومته بشراسة، جاءت مرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر، وهي مرحلة ما بعد الاستعمار، ويقصد بها "آثار العملية الكولونيالية على الثقافات والمجتمعات، بدأ استخدامه بعد الحرب العالمية الأولى للإشارة إلى الفترة التي تلت الحقبة الاستعمارية، واستخدمه النقاد مع نهاية السبعينات، عند مناقشة الآثار الثقافية التي نجمت عن عملية الاستعمار"⁹.

والمؤكد هو أن الثقافة الفرنسية لم تكن أبدا مساعدة ومساندة للثقافة الجزائرية، بل كان هناك صراع بين الثقافتين، من هو الغالب، ومن سيكون المغلوب، لأن هدف فرنسا كان طمس هوية البلد بالإضافة إلى خلق هوة عميقة بين الأمتين. ولكن هذا التطرف لم يولد عند الشعب الجزائري إلا التمسك أكثر بالأصالة ومقاومة العدو بعناد وشراسة، وهذا الفرق بين الأمتين قد أكده عدّة مستشرقين فهم يركزون على الـ "نحن) الأوروبية وهويتها وتفوقها في مقابل (أولئك) أو(هم) أو الشرقيين المتخلفين أو غير الأوربيين، فجورته تعميق التمييز بين الفوقية الغربية/الأوروبية، والدونية الشرقية"¹⁰.

فالمرکزية الغربية ترى أنها الأفضل، وأنها العنصر الفعّال في كل خطاب أو حوار، كما أنها تسعى إلى تسويد صفحة الغير وتشويهه، خاصة العرب منهم، كما أنّ الظروف قد هيأتهم للإحساس بأنهم مركز القوة والسيادة في العالم وهذا بحكم التطور العلمي والتكنولوجي وكذا الاقتصاد القوي، فهذا ما عزّز من شعورهم بالفوقية، وبالمقابل إحساس العرب بالدونية، وهذا هو السبب الذي جعل الدول العربية تمثل مطمعا للاستعمار وميدانا للتسابق نحو استغلال ثرواتها بكل أنواعها، ومن المؤكد أنّ " (السمو الأوروبي) و(أوروبا مركز العالم) و(امتداد أوروبا) هي أفكار جعلت أوروبا تشعر بأنها السيد المعطاء، وبالتالي ليس أمام العالم سوى ان يعتمد عليها، وهكذا صار الغرب ينظر إلى العالم بأجمه ميدانا للاستثمار الاقتصادي والفكري والسياسي"¹¹.

لقد قام الاستعمار بالتعامل بكل همجية وعنصرية مع الشعب الجزائري، فقد كانوا يرونهم عبارة عن همج لا يفقهون شيئاً، وقد اعتمد الاستعمار خطاباً ثقافياً تنوعت وسائله وأشكال هيمنته على الآخر، حيث ركّز كثيراً على وجود "الاختلاف العرقي والديني واللوني والطبقي والثقافي والجنسي والمكاني، وهكذا تمّ بناء الشرق على أنّه متخلف ومنحطّ، وأنجزت الرأسمالية توسعها في العالم عن طريق الاستعمار، وسرّعت العنصرية اندفاعه واستغلال الشعب المستعمر، معتمدة على إيديولوجيا حددت بموجها شرائح من الناس على أنّها تناسب مهام محددة"¹². حيث أنهم تعاملوا مع الغير على أساس العرق، فانتشرت الطبقية في المجتمع الجزائري.

ثانياً: الخطاب الاستعماري في الرواية:

يصوّر الكاتب في رواية (الدار الكبيرة) قصة عائلة جزائرية مكونة من الأم لالة عيني. وهي أرملة، وابنتها عمر، وابنتها عويشة ومريم، اضطرت لأن تعيل أولادها بعد فقدانها لزوجها، فهي تعمل ليلاً ونهاراً، تقضي وقتها حزينة ومتبرّمة من سوء حظها، خاصة بعد مجيء أمها المقعدة للبقاء عندهم، هذا ما جعل غضبها متأججاً دائماً.

نجد الخطاب الاستعماري متجلياً في الرواية، وهذا في مقولات تعكس تعالي وسيطرة المستعمر منها "اغمض عينيك، افتح فمك"¹³ و"إذا كان هدفك أن تعيش فحسب، فاحفض رأسك واعمل"¹⁴ و"عليك أن تطيع هذه نصيحتي إليك. . . الطاعة خير لك"¹⁵. فقد حاول الكاتب في روايته أن يبيّن سياسة المستعمر القائمة على التكبر وعلى إخضاع الغير له وإلزامه بالطاعة وإلا فسينال العقاب على رفضه، سواء كان هذا العقاب جسدياً أو نفسياً عن طريق تجويعه، وهذا ما نجده ظاهراً في رواية (النول) بالقول: "لقد علمونا أن نخضع"¹⁶. وهذا الخطاب يصدر عن الانسان الجزائري المستعمر، الذي يعاني قساوة الاستعمار والحرمان من أدنى حقوقه، فهو الفلاح المعدم، وقد تكررت في الرواية كثيراً عبارة (العربي الصغير، الحقيير) وهذا تأكيد على هذه النظرة الدونية للفرد الجزائري.

لقد ركزت الرواية على الخطاب الاستعماري عبر العلاقة الموجودة بين الشخصيات، وبما أنّ المستعمر هو السبب في شقاء كل الناس وخاصة عائلة عيني، لذلك كانت جميع شخوص الرواية تكّن كرها كبيراً له كونه -المستعمر- السبب الرئيسي في حالة البؤس والشقاء الذي

يعانون منه. وقد ركّز الكاتب على شخصية الأم عيني التي كانت تصبّ جمّ غضبها على أولادها متحججة بأنهم أولادها ويحق لها تأديبهم بالطريقة التي تراها هي مناسبة لذلك، فنجد أنّ الكاتب استحضرها ليصنع منها أداة تعبير عن فكرة تصدر عنها الرؤية الاستعمارية معتقدة أنه لها الحق في تملك الآخر والسيطرة عليه، "كيفاش ما حقيش نضربهم؟ ماهمش اولادي؟ واش هذه الزعاقفة؟ فإذا رغبت في قتلهم أنا؟ ألا يحق لي ذلك؟ ما الذي يمنعني عنه؟ أليسوا لي؟"¹⁷.

أمّا بطل الرواية الطفل عمر الذي نشأ في وسط مشحون بالمشاكل وبالفقر والحاجة، وكان يحاول دائما معرفة سر شقائه، ولم يطل الأمر به كي تظهر وتبرز نغمته ورغبته في التخلص من هذا الواقع المرير، فقد كانت هناك عدّة أسئلة تدور في نفسه، لماذا هناك أناس سعداء بحياتهم؟ وبالمقابل هناك الأشقياء بكثرة في هذا العالم المحيط به. لماذا هناك من يجد ما يأكله دون عناء؟، بينما هناك من لا يجد شيئا يسدّ به رمقه. إن هدف الخطاب الاستعماري هو التمكّن من تغيير مجموع الثوابت الوطنية في الفرد الجزائري، واستبدالها بمفاهيمه هو، لكن تحت سيطرته هو لأن ثنائية (السيد والتابع) لن تتغير أبدا، ولكن محمد ديب ومن خلال روايته كان في كل مرة يردّ على الخطاب الاستعماري الذي يحاول الترويج لفكرة أن فرنسا هي وطنكم، حيث كان يعلن في كل مرة أن الجزائريين سيبقون متمسكين بأصالتهم وهويتهم إلى آخر نفس لهم في الحياة.

وبعدها يأخذنا الكاتب إلى مكان آخر وبالضبط إلى منطقة معزولة تسمى بني بوبلان، وهي منطقة جبلية نائية، أين ذهب عمر مع جارتة زهور إلى دار شقيقة هذه الأخيرة، (ماما) المتروجة من رجل قروي يدعى قرّة علي أين قضيا عطلة الصيف هناك، هذا ما مكّن عمر من التعرف على هذه الحياة الريفية الجديدة التي استهوته كثيرا. وفي هذه الرواية يرى قرّة علي نفسه بأنه السيد الممتلك والمسيطر على كل شيء، وهذا كله من خصائص النظرية الاستعمارية التي تهدف إلى تملك كل شيء والسيطرة التامة على الأمور.

من الأمور الهامة التي أثارها الاستعمار وتناولتها النظرية ما بعد الكولونيالية بالبحث والمناقشة مسألة الهوية والتمسك بها، فالاستعمار سعى إلى أن يغير من الهوية الوطنية واستبدالها بمفاهيمه هو، وقد قدّم الكاتب مساحة كبيرة في روايته للحديث عن الوطن والوطنية، كالتعريف الذي قدمه المعلم حسن عن الوطن "الوطن هو أرض الآباء، هو البلد الذي

أقمنا فيه منذ أجيال كثيرة... فالوطن لا يتمثل فقط في التربة التي نعيش عليها، لكن في مجموع سكانها وكل ما يوجد فيها¹⁸. ثم تساؤل عمر في نفسه عن أن: "أمه، عويشة، ومريم، وسكان دار سبيطار؟ هل يشكلون جميعا جزءا من الوطن؟ وهل الأمر كذلك بالنسبة لحميد سراج أيضا؟"¹⁹

فمنذ أن وطأت أقدام الاستعمار الفرنسي وهو يسعى إلى إذلال الشعب الجزائري من خلال جعل نفسه السيد المطاع والمركز، أما أبناء البلد فبعد أن كانوا أصحاب الدار والممتلكات كلها أصبحوا هوامش وعبيد، "عندما يأتي من الخارج أجنب يدعون أنهم الأسياد، يكون الوطن في خطر، فهؤلاء الأجنب أعداء، يفرضون على كافة السكان واجب الدفاع عن الوطن المهتد، هنا يكون الخيار هو الحرب، يقع على السكان واجب الدفاع عن الوطن، والتضحية بوجودهم في سبيله"²⁰. وهنا يؤكد الكاتب على استعداد الجزائريين للتضحية بأنفسهم دفاعا عن وطنهم وهويتهم، ولعل المعلم حسن قد رسم في ذهن تلامذته معنى الوطنية، لكنه ولشدة خوفه من بطش الاستعمار خشي أن يكمل كلامه، مخافة التعرض للاضطهاد، واكتفى بالقول: "لا تصدقوا بالقول إن فرنسا هي وطنكم"²¹.

حاول الاستعمار نشر فكرة أنهم باستعمارهم لهذه الدول جاؤوا فقط لإخراجها من ظلامها الحالكة نحو نور التمدن، فهم يرون بأن العرب غير قادرين على تسيير أمورهم لذلك وجب مساعدتهم في ذلك "إن رغبت حقا في الحياة... هبّط راسك واخدم هذا ماكان، أو ماكانش أخلاف"²². لكن الفرد الجزائري لا يرضى بالذل، ولن يقبل أبدا بسياسة الاستعمار القائمة على القمع والإهانة والتجوع مقابل شيء من الطعام ليسكت جوعهم ويمتص غضبهم، "فالرجال عندنا مصنوعون من معدن غال التركيب، القلب صاف لا خلط فيه، كل المحن وكل المآسي التي عرفناها، لم تفت بعد في عزمنا، ولن نبدأ اليوم، طأطأة الرأس، كل رجل تراه حولك، يعتبر مخزن بارود، يكفي أن تقع شرارة عليه"²³.

هناك ارتباط وثيق بين الثقافة والإمبريالية في الرواية كنتاج ثقافي، قد يستغل من طرف كاتبا لتكريس تصورات تبرر الهيمنة الاستعمارية، وتعطي الحق للاستعمار باستعمارهم "هذه هي عاداتنا في الريف، نحن نوّكد دائما أننا (ما نسوواوش) نقول هذا دائما عن أنفسنا ونوّكد أيضا بأن الغلطة غلطتنا"²⁴. وهنا يبرز احتقار الذات والشعور بالدونية عن المستعمر، وبالمقابل

استعلاء هذا الأخير، ويواصل الحديث قائلاً: "يقولون إنّ الفلاح تنبعث منه رائحة كريهة، الفلاح مجرد دابة، الفلاح خشن الطباع، والفلاح... وهكذا، سيوضحون لكم بأنّ الفلاح راض بمصيره، فلئن عرضتم عليه أن يستبدل حياته بحياة أخرى، واضحة سعيدة، يكون فيها رجالاً معتبراً... فسيرفض، فالفلاح سيظل كما هو، ويبقى كما هو؟ ومن المعلوم أنكم لو وضعتم بين يديه شيئاً جميلاً، فسيشوّهه فوراً، حتى يكون متطابقاً مع صورته، لأنه عاجز عن الارتقاء إلى مستوى أعلى من الظرفية التي يعيشها؟"²⁵.

كلنا نعلم بأنّ المستعمر يلجأ دائماً إلى تدليل المستعمر، وغرس إحساس الدونية فيه، لكن أن يترسّخ هذا المفهوم عند المجتمع الجزائري، ويتقبّل الفرد أن يوصف بالحيوان والدابة، فهذا شيء كبير يؤكّد الإحساس بالاحتقار والنقص عن الفرنسيين الذين كانوا يشاركونهم وطنهم، "ألستنا كمثل الأجانب في بلدنا؟ شرع الله يا جبراني، إنني أقول لكم الأشياء كما أراها. تبدو الأمور، وكأننا نحن الأجانب، وبأنّ الأجانب هم أهل البلد بحقّ، فبعد أن بسطوا سيادتهم على كلّ شيء، هاهم عازمون الآن على أن يكونوا سادة علينا أيضاً، وبعد أن أترعوا من ثروات أرضنا، فهم يرون بأنّ من واجهم أن يمتقنونا... غير أنّ هذا لا يمنع كون الأراضي ملكاً لنا"²⁶. وهنا تنكشف حقيقة المستعمر في الذات المستعمرة من خلال كشف ألعيبه، فالاستعمار قائم على الظلم الذي ظهر في تعامله مع الشعب الجزائري وهذا من خلال سنّ القوانين الجائرة، لذلك سعت الرواية إلى إبراز صورة القبح الاستعماري، وهذا من خلال تشبيهه بالوحش والحيوان المفترس. وبدوره المستعمر كان ينظر إلى الشعب على أنه جاهل ومتخلف ولا يفقه من أمور الحياة شيئاً، "كان هؤلاء من جهتهم، ينظرون إلهم نظرة استنقاص، ويعتبرونهم هملاً قادرين على ارتكاب كلّ الآثام"²⁷.

وتبرز الرواية أيضاً الرفض التام من طرف الجزائريين للقوانين الاستعمارية الجائرة، التي كانت تطبقها بتعسف على المواطنين، كما أنهم رفضوا قضاءهم وعدالتهم، "أنا لا أرغب في المثول أمام عدالتهم، فما يسمونه عدالة ليس سوى عدالتهم هم، عدالة لم تؤسّس إلّا لحمايتهم، لضمان سلطتهم علينا، كي يستنقصونا، يقمعوننا. في نظر عدالة كهذه، فأنا جان مهتما فعلت، لقد حكمت عليّ قبل أن أولد، فهي تصدر أحكامها علينا دون حاجة إلى إثبات جنائية، عدالة صنعت ضدنا، لأنها ليست عدالة كافة الرجال، لا أريد أن أرضخ لها..."²⁸.

ثالثا- تفكيك الخطاب الاستعماري:

1- فهم ثنائية الشرق والغرب: لقد أكدت الرواية عمق الهوية الموجودة بين الشرق والغرب، بين المستعمر الفرنسي والمستعمّر الجزائري، وقد رصدت لذلك العلاقات التفاعلية التي توحد بينهما سواء أكانت تلك العلاقات ايجابية مبنية على التسامح والتفاهم والتعايش، والذي يظهر من خلال عمل بعض أتباع المستعمر الضغط على الأهالي والتقرب منهم بحجة مساعدتهم، كقولهم: "(أنا صديق العرب، أنا أعرفك وأنت تعرفني، تعال يجب أن تأكل، ويجب أن تأكل امرأتك، وأن يأكل أولادك، أنا لست مثل...، أرواح تخدم يا أحمد، أنا أدفع أجورا طيبة، أنا صديق ال...)"²⁹. ومثل ("لا تخافوا...، لا تخشوا شيئا عن أنفسكم، لم نأت إلى هنا لنلحق الضرر بكم، نحن نقوم بعملنا فقط)."³⁰ أو كانت تلك العلاقة مبنية على العدوان والصراع الجدلي والصدام، "اهتزت الدار بمشاعر أشبه بالخلية المستفزة، تحدثت النسوة مع بعضهن، معا في نفس الوقت، تضخّم الضجيج، كان الشرطيون يفتشون الغرفة، وأخذوا معهم فاطمة إلى الداخل، في نفس الوقت انطلقت شهقات بكاء من الزاوية المظلمة التي ركن إليها عمر"³¹.

2- مواجهة التغريب: ثلاثية محمد ديب عبارة عن نقل للحقائق القاسية والانتهاكات الصارخة لفرنسا في الجزائر، وبالتالي فقد عمل الكاتب على فضح الهيمنة الغربية من خلال تعرية مرتكزاتها السياسية والايديولوجية، وكذا تبيان نواياها الاستعمارية والتأكيد على جشعها لاستنزاف خيرات الشعوب المستعمرة. "في دوار سيدي موسى، قام ثلاثة أعوان من شرطة الاستخبارات العامة بتعنيف المزارعين، صمد هؤلاء، فصوّب الشرطة نحوهم مسدساتهم الرشاشة"³². ونتيجة للوعي الذي بدأ ينتشر في أوساط المجتمع الجزائري والمتمثل في الرواية من خلال شخصية حميد سراج، هذه الشخصية الفذة التي قاومت الاستعمار ولم ترسخ له أبدا، لذلك كان مغضوبا عليه طيلة زمان سرد الرواية "توقف رجال الشرطة المشدوهين عن التفتيش، غادروا الغرفة، ليعودوا من جديد إلى الساحة... من جديد قلبوا كتب حميد استولوا على بعض المجلدات وعلى جرائد قديمة..."³³. وسبب غضب الاستعمار على حميد سراج لأنه كان ينادي بأفكار جديدة لم يألفها بقية الناس، وبالتالي كان مصيره السجن بسبب تفكيره المختلف ونظرته إلى مستقبل بلاده ومجتمعه. ولقد عبّرت شخصيات الرواية عن ضيقها من نظرة الاستعمار السلبية لهم، فهم عرب وبالتالي هم يمثلون مجتمع الحيوان وهذا ما يؤكد جليا

نظرة الاحتقار والدونية للشعوب المستعمرة " (خذ يادودة، خذ هذه)"³⁴. وكمثل قولهم: "أنتظر أمها العربي القذو..."³⁵. وبالتالي فقد عملت هذه الرواية على تفكيك مقولات الخطاب الاستعماري الغربي، التي تعبّر عن الغطرسة والهيمنة، وعملت على تقويض المفاهيم الغربية.

3- الدفاع عن الهوية الوطنية: من المواضيع الهامة التي أثارها الاستعمار مسألة الهوية التي شغلت بال الأدباء والمفكرين، وهذا من خلال انتقاد سياسة الاقصاء والتميش والهيمنة المركزية. وقد وجد محمد ديب وكغيره من الأدباء الآخرين نفسه مجبرا على محاربة الاستعمار بلغته، مقوّضا حضارته بفضحه وتعرية انتهاكاته في الجزائر "فالذين دخلوا السجن، كانت لهم أكثر من غيرهم من السكان مشكلات مع السلطات، يجب أن يكون هناك متهمون. كلنا متهمون. نعم كلنا متهمون، بدون أن يستثني واحد، أن نسجن أو يطلق سراحنا، لن يغير في الأمر شيئا، هناك قوانين: هي موضوعة بكيفية تجعلنا متهمين لمجرد وجودنا خارجين، نحن ضد القانون ونتآمر دون انقطاع ضد القانون، هكذا أراد القانون، فالذين يلقي عليهم القبض متآمرين، لن يجروا هم بالذات على نكران ذلك ستحترم الشرعية دائما"³⁶.

فقد عبّرت الشخصيات عن الانتهاكات الانسانية التي اقترفها الاستعمار بحق المجتمع الجزائري، ونظرا لهذه الظروف السيئة يقف النضال ضد الخطاب الكولونيالي، نضال الشعب الجزائري القائم على مطالبته باحترام انسانيته من خلال استرجاعه لحقه الضائع في الحرية والسلام، واسترجاع كرامته وحقوقه كلها، حيث يبرز هنا الرد على الخطاب الاستعماري من خلال مقاومته ورغبته في تطهير أرضه منه.

لقد أظهرت الرواية وعن طريق شخوصها الذين عانوا كثيرا من إذلال الاستعمار لهم، وسلبهم كل حقوقهم وكرامتهم وأراضيهم ليصبحوا أجراء وحمّاسين في أراضيهم، بالإضافة إلى سياسة التفجير والتجويع التي مارسها المحتل عليهم. ففي رواية الدار الكبيرة كانت كل حواراتها تدور حول تحصيل عيني للقمّة العيش وتصوير تعبها من أجل إطعام أبنائها الثلاثة وأمها التي تركت عندها، فهذا الجزء يعبّر بحق عن الظلم الذي لحق بالجزائريين جرّاء تعالي الفرنسيين وإحساسهم بالتعالي وبكونهم الأسياد وما على الغير إلا خدمتهم. فهذه الرواية تعبّر عن الانسانية المهانة من قبل الاستعمار، ليبدأ الجزء الثاني (الحريق) عام 1954، وفي هذه الرواية يقدّم محمد ديب الوضع العام للفلاحين، وهم يقدمون خيرات بلادهم للمستعمر، ويصوّر أيضا جوعهم الذي

كان ملتصقا بيومياتهم حتى أنهم ألفوه جدًّا. وفي الرواية الثالثة (النول أو المنسج) فبالرغم من عمل الناس في مصنع النسيج إلا أنهم سيظلون فقراء ولن تتغير حالتهم المادية أبداً، ومن هؤلاء عمر الذي ترك مقاعد الدراسة ليعمل في هذا المصنع في سن مبكرة. وهذه الرواية أيضاً تصوّر بؤس العمال، ومحاولة المستعمر القضاء على شخصية الجزائريين من خلال سياسة التجويع والقهر الدائمين. ولكن الجديد هنا أنّ الشعب قد أصبح على نسبة كبيرة من الوعي لأنّ مطلبه ليس مجرد الحصول على شيء من الخبز، بل أنّ مطلبه كان استعادة الوطن المغتصب من قبل العدو. وبالتالي فثلاثية محمد ديب كانت ترصد الحالة الاجتماعية والسياسية آنذاك، ممثلة في عائلة عيني التي كانت تكابد من أجل توفير لقمة العيش لأولادها، شأنها شأن عدد كبير من العائلات الجزائرية خاصة إبان الثورة التحريرية الكبرى.

خاتمة:

تعدّ ثلاثية محمد ديب من أهم النصوص الروائية في الأدب الجزائري، رغم أنها كتبت باللغة الفرنسية إلا أنّ هذا لم يمنع من محакاتها للواقع المرير الذي فرضه الاستعمار الفرنسي وعاشه الشعب الجزائري إبان فترة الاحتلال. فهذه الرواية أكدت وبوضوح على الخطاب الاستعماري القائم على ثنائية أساسية تتمثل في (السيد _ التابع) (المستعمر _ المستعمر)، لكن الكاتب ومن خلال الرواية حاول تقويض المركزية الغربية من خلال تفكيك خطابه وتعريته وفضحه أمام العالم بأسره، والتأكيد على تمسك الشعب الجزائري بهويته وأصالته.

فهذه الرواية كشفت بحق عن الوجه البشع للاستعمار الفرنسي أثناء احتلاله للجزائر، ومن الواضح أنّ الاستعمار قد سعى إلى السيطرة على الجوانب الثقافية بالإضافة إلى الجوانب العسكرية، وهذا من خلال بقاء جذوره رغم رحيله عنها. كما يكشف النص عن مقاومة الشعب الجزائري ونضالهم من أجل تطهير وطنهم من مستعمر سعى بكل الطرق إلى إذلال وإخضاع والسيطرة على الشعب الجزائري، منطلقاً من النظرة الاستعمارية له، التي تنظر إلى الآخر نظرة دونية.

وقد أشاد بالثلاثية عدد كبير من الأدباء والنقاد، حيث قالت عنها يمني العيد: "أنها أجمل ما كتب ديب في الأدب الروائي الجزائري، بل من أجمل الروايات في الأدب الواقعي، أقول العربية لأنّ

الثلاثية وإن توسلت الفرنسية لغة، فهي في المنطلق وفي روحية التعبير، رواية عربية، لذلك لا أجد أيّ حرج في تقويمها كواحدة من الروايات العربية"³⁷.

الهوامش:

- 1- البصير محمد، الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة 1970-1982، بحث مقدم لنيل شهادة¹ الماجستير، جامعة الجزائر، 1985-1986، ص 24.
- 2- بن صالح نوال، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة والهوية، منشورات المخبر، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع7، 2011، ص 222.
- 3- أشكروفت وآخرون، الامبراطورية ترد بالكتابة، ترجمة وتقديم خيري دوما، دار أزمنة للنشر، عمان، 2005، ص 15.
- 4- خيري دومة، عدوى الرحيل، موسم الهجرة ونظرية "ما بعد الاستعمار"
http://www.wibn_rusgd.org/forum/adwa_homi_k.routledgeK1996
- 5- البازغي سعد، د. هيجان الرويلي، دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2000، ص 93.
- 6- محمود ابراهيم رزان، جماليات ما بعد الكولونيالية، أوراق مجلة رابطة الكتاب الاردنيين، الاردن، ع42، 2014، ص 15.
- 7- رحيم سعد محمد، أدب ما بعد الكولونيالية، الرؤية المختلفة والسرد المضاد، مجلة الحوار المتمدن، دراسة على الرابط www.dalil-alkitab.net.
- 8- سرحان عبد الحميد، الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2017، ص 03.
- 9- بيل أشكروفت، الرد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، غاربت غريفيت، هيلين تيفن، ترجمة د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2006، ص 331.
- 10- ادوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء، ط4، نقله للعربية كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1995، ص 70.
- 11- ابراهيم عبد الله، المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية (اشكالية التكون والتمركز حول الذات)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997، ص 18-19.
- 12- أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، 2007، ص 113.
- 13- ديب محمد، الدار الكبيرة، ترجمة أحمد بن محمد باكلي، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ماي 2012، ص 18.
- 14- نفسه، ص 33.

- نفسه، ص 33.15
- ديب محمد، النول، ترجمة أحمد بن محمد باكلي، مطبعة الفنون الجميلة، ماي 2012، ص 87.16
- ديب محمد، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص 116.17
- ديب محمد، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص 25.18
- نفسه، ص 25.19
- ديب محمد، الدار الكبيرة، مرجع السابق، ص 25.20
- نفسه، ص 26.21
- ديب محمد، الحريق، ص 55.22
- نفسه، ص 55.23
- ديب محمد، الحريق، مرجع سابق، ص 55.24
- نفسه، ص 65.25
- نفسه، ص 76.26
- ديب محمد، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص 29.27
- ديب محمد، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص 59.28
- ديب محمد، الحريق، مرجع سابق، ص 229.29
- ديب محمد، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص 49.30
- نفسه، ص 51.31
- ديب محمد، الحريق، مرجع سابق، ص 216.32
- محمد ديب، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص 58.33
- ديب محمد، الحريق، مرجع سابق، ص 188.34
- نفسه، ص 190.35
- نفسه، ص 264.36
- العيد يمى، فن الرواية العربية بين خصوصية الخطاب وتميز الحكاية، دار الآداب، ط 1، 1998، ص 53-54.37

*- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- البصير محمد، الموقف الثوري في الرواية الجزائرية المعاصرة 1970-1982، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، 1985-1986.
- 2- بن صالح نوال، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة والهوية، منشورات المخبر، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع 7، 2011.
- 3- أشكروفت وآخرون، الامبراطورية ترد بالكتابة، ترجمة وتقديم خيري دوما، دار أزمنة للنشر، عمان، 2005.
- 4- خيري دومة، عدوى الرحيل، موسم الهجرة ونظرية "ما بعد الاستعمار"
- 5- البازغي سعد، ودهيجان الوياحي، دليل الناقد الادبي المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 2000.

- 6- محمود ابراهيم زران، جماليات ما بعد الكولونيالية، أوراق مجلة رابطة الكتاب الاردنيين، الاردن، ع42، 2014.
- 7- رحيم سعد محمد، أدب ما بعد الكولونيالية، الوية المختلفة والسرد الضاد، مجلة الحوار المتمدن، دراسة على الرابط www.dalil-alkitab.net
- 8- سرحان عبد الحميد، الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2017.
- 9- بيل أشكروفت، الرد بالكتابة. النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، غاريت غريفيت، هيلين تيفن، ترجمة د.شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2006.
- 10- ادوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء، ط4، نقله للعربية كمال أبو أديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1995.
- 11- ابراهيم عبد الله، المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية (اشكالية التكوين والتمركز حول الذات)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997.
- 12- أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، 2007.
- 13- ديب محمد، الدار الكبيرة، ترجمة أحمد بن محمد باكلي، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ماي 2012.
- 14- ديب محمد، النول، ترجمة أحمد بن محمد باكلي، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ماي 2012.
- 15- ديب محمد، الحريق، ترجمة أحمد بن محمد باكلي، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ماي 2012.
- 16- العيد يمني، فن الرواية العربية بين خصوصية الخطاب وتميز الحكاية، دار الآداب، ط1، 1998.